

القلب الكافر في القرآن



(وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَخُدَّهٗ أَشْمَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)
(الزمر/ 45).

لكلِّ شيء علامة من علائم الإيمان والكفر، إنَّ القلب الذي ليس فيه نور الإيمان وقد اسودَّ وأظلم بالكفر، فإنَّه ينفر من النور ويشمئزُّ من ذكر الله نور الأنوار، ولكن إذا ذكر ما سوى الله من الآلهة والطغاة والكفار ومن يشبههم، فإذا هم يستبشرون ويفرحون، وإنما يشمئزون من ذكر الله ومن كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) لأنَّهم لا يؤمنون بالآخرة، وإنَّما لا يؤمنون لأنَّهم ارتكبوا القبائح والفجور والمنكرات والفواحش ما ظهر وما بطن، وهذا يعني أن تكون عاقبتهم العذاب الأليم والخزي والعار في الآخرة، وكيف يحلو لهم ذلك، بل أنكروا يوم القيامة، وأنَّهم إذا ماتوا فينتهي كلُّ شيء، فليس لهم إلا حياتهم هذه، ولهذا يرتكبون المنكرات والظلم والجور ليصلوا إلى ملاذهم، ويشبعوا رغباتهم وشهواتهم، فمن استترَّ وفرح واستبشر بذكر الله، فذلك من إيمانه وقلبه المؤمن، وأمَّا إذا اشمئزت نفسه، وانقبض في باطنه، وظهر ذلك على ملامح وجهه، فإنَّ ذلك من علامة القلب الكافر، وهناك من يالف مجالس البطالين، وما لم يكن فيه ذكر الله وذكر أنبيائه وأوليائه، فهذا دليل ضعف إيمانهم، وربما يؤدِّي الأمر إلى هلاكهم وكفرهم.

وقد ورد في رواياتنا أنَّ الكفر على وجوه خمسة:

1- كفر الجحود. 2- الجحود على قسمين. 3- كفر بترك الأحكام الإلهية. 4- كفر البراءة. 5- كفر النعمة.

1- فالجحود تارةً إنكار الربوبية والإلهوية فيجحد بالله سبحانه وينكر المعاد والجنَّة والنار، فهم من الزنادقة والدهريين القائلين: (وَمَا يَهْدِيكُمْ إِلَّا الدَّهْرُ) (الجنَّة/ 24)، فمن عند أنفسهم يخترعون مسلكاً وطريقاً (وَأِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (البقرة/ 78)، فلا برهان لهم، ولا تنفعهم النذر (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (البقرة/ 6).

2- والجود أُخْرِي بِمَعْنَى كَفَرِ الْمَعْرِفَةِ، فَإِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ الْحَقَّ لَوْضُوحِهِ، إِلَّا أَنَّهُمْ يَنْكُرُونَهُ (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ) (النمل/ 14)، لظلمهم وطغيانهم (وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمْ يَأْجِبْهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) (البقرة/ 89).

فقبل ظهور الإسلام، كان اليهود يخبرون الناس بنبيٍّ آخر الزمان، إِلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِمَعْلُومَةٍ مَا عَرَفُوا، أَنكَرُوا ذَلِكَ وَكَفَرُوا بِهِ، فَمِثْلُ هَؤُلَاءِ بَعِيدُونَ عَنِ الرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ، فَلَعْنَةُ ٱ عَلَى الْكَافِرِينَ.

3- وَمِنَ النَّاسِ مَن يَكْفُرُ بِنِعْمِ اللَّهِ فَإِنَّهُ سِجَانُهُ يَمْتَحِنُ عِبَادَهُ بِفَضْلِهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (هَذَا مِمَّنْ فَضَّلِ رَبِّي لِيُذِلَّنِي أَمْ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) (النمل/ 40).

فَإِنَّ مَنْ يَشْكُرْ نَعْمَ ۖ قَوْلًا وَعَمَلًا، فَإِنَّ ۖ هُوَ الشَّاكِرُ فَيُزِيدُهُ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ ۖ غَنِيٌّ كَرِيمٌ، فَهُوَ لَا يَزَالُ فِي الدُّنْيَا يَكْرُمُ عَلَيْهِ بِرَحْمَانٍ تَهْتِ، إِلَّا أَنَّهُ يَعْذُّبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ أَتُزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ أَتُضَاعَفْ لَكُمْ إِزَابَتُنَا ۚ إِنَّ عَذَابَنَا لَشَدِيدٌ) (إبراهيم/ 7).

فعلينا أن نذكر الله في نعمائه وآلائه ونثمد بنعمته:

(وَأَمَّا مَنَا بِنَدْعُ مَمَّةَ رَبِّ بَدَّ فَحَدَّثَ نَسْ) (الضحى / 11).

(فَإِذْ كُرِّرُونا أَمْزَجْنا كُرْنا لَمْ وَلا تَكْفُرْنا) (البقرة / 152).

4- وأما الكفر بمعنى ترك الأحكام الإلهية، كما في قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرَجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْبَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرَجُونَ مِنْ دِيَارِكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَطَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تَفَادَوْهُمْ وَهَوْ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِمْ إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) (البقرة/ 84-85).

فمن الناس من يعمل ببعض الأحكام الشرعية لأزّها تتلاءم مع مصالحه ولا يعمل ببعضها ويكفر بها عملاً، لأزّها تتضارب مع مصالحه الشخصية، ومثل هذا لا يقبل إيمانه:

(فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مَذْكُومٌ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (البقرة/ 85).

5- كُفِرَ الْبِرَاءَةَ، كَمَا فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (كَفَرْنَا بِكَ كُفْرًا بَدِيدًا بَيِّنَاتِنَا وَبَيِّنَاتِكُمْ الضُّلُوكَ وَالْإِغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ) (الْمُتَحَنِّنُ / 4).

فإنَّ إبراهيم الخليل (ع) يتبرَّأ من نمrod وقومه، واشتعلت نار الحرب بينهما، ولن يترك إبراهيم ذلك حتى يؤمنوا بالله وحده، ويكفروا بنمrod والطواغيت.

وَمِنْ كُفْرِ الْبِرَاءَةِ تَبَرَّيْ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِمَّنْ اتَّبَعَهُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ) (إبراهيم/ 22).

كما يتبرأ الكفار بعضهم من بعض يوم القيامة:

(إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ) (العنكبوت/ 25).

فالكفار إنما عبدوا الأوثان من دون الله سبحانه للمراعاة الصداقة والمودعة الدنيوية حفظاً لمصالحهم في الدنيا، إلا أنه يوم القيامة يوم تبلى السرائر ويكون بصرك اليوم حديد ونافذ ويرى الحقائق فإنهم يتبرأون بعضهم من بعض:

(الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) (الزحرف/ 67).

فالكفر له مراتب وأقسام، كما جاء تفصيل ذلك في الروايات.

المصدر: كتاب حقيقة القلوب في القرآن